أنباء وآراء

حياة الشبيبي وسيرته

الدكتور عبد الرزاق محي الدين

الكلمة التي القاها الدكتور عبد الرزاق محيي الدين في حفل استقباله من قبل مجمع اللغة العربية في القاهرة ، وكانت في التعريف بسيرة سلفه المرحوم العلامة الشيخ محمد رضا الشبيبي

ليس شيء أحب الى طلاب المعرفة من ان يسلكوا في نظام ـ مجمع الخالدين ـ وليس شيء اشق عليهم من ان يؤدوا ثمن ذلك حين تستوفى الحقوق وتسترد الامانات ، والماثل امامكم ايها الاعلام الافاضل ـ اعضاء مجمع اللغة العربية ـ مدين قبل اليوم لكم طالباً بعد لم يف بما استلف ، ولم يرجع ما اقترض ، ثم زدتموه تشريفاً بقبوله زميلا لاساتذته ، وندأ لمشايخه ، فضاعفتم كرم الاباء ، وتعهد الأبناء ، فهل له الآن ان يستزيدكم فضلا ، ويستمنحكم تعهداً بان تهيئوا له بعض الوفاء بالصفح وقبول النزر اليسير .

ولقد يزيد في المسؤولية التي انوء بها الآن في مجمعكم الموقر ان اشغل مكان رجل وسع جيله في العراق ، واتسع لامته في بقية اقطار العربية ، فكان له بحق ان يمثل قطره في امته ، وامته في قطره ، وان يصل بين المجمعين ، وان يقدم بعلمه وادبه ما يحيي به آثار السلف للخلف .

ايها السادة الزملاء

بيني وبين سلفي الراحل المغفور له استاذنا الرضا ـ بلدية ـ جمعت مسقط رأسينا وتشابه في عمل اسرتينا ومقاربة في المنشأ والمسلك والزي في سوابق الايام، لعلها ادّت ـ فيما أدّت ـ الى ان اقتبس منه ، وآخذ عنه ، واخلفه في عضوية المجمع العلمي العراقي، وفي رئاسته ثم في أن اقول عنه كلمة يوم استقبالي في مجمعكم الموقر العظيم .

انوه بهذا لاترك لكم فرصة التقدير المتثبت في ان يكون لحكمي له باعث من التزام بلدي او منشأي ، ولحكمي عليه سبب من تشابه الصناعة ومأتى المعاصرة .

وسأبدأ بأوّل صورة للراحل الكريم علقت في ذهني وما تزال. لقد فتحت عيني على دنيا الادب صبياً والشيخ الشبيبي أديب يعيش وأسرته في النجف، ولكن قصائده تجلجل في سماوات الادب العربي في العراق ومصر والشام ، وكان صدى ذلك يتردد في مجالس النجف الادبية والدينية، والنجف ـ كما تعرفون ـ في العراق كالازهر في مصر ، فتلقى عليه الاضواء، وتوجه اليه الانظار ، ويوصل حينئذ بين ما له من صيت طائر ، ومسلك مقيم ، فاذا بسيرته المقيمة في النجف مدد لذلك الذي تجاوز آفاقها ، ولقد كنت استمع الى الحديث عنه ـ حيث يجري بذكره حديث ـ فلم اسمع الا الحكمة والعقل والعفة والنزاهة وطهارة اليد واللسان والجوارح . ولقد كنا فتياناً نتحلق في حلقات الدرس بجامع الامام ـ علي ـ عليه السلام ويتفق له ان يمرّ عابراً فتشرئب اعناقنا ، وتمتد ايدينا كما لو ان نوراً يعبر من مكان الى مكان ، او نسمة طيبة تسري خلال لفحات السموم .

وكانت مكانته هذه تغري كلاً منا ان يكون اديباً او شاعراً او صاحب مقالة ، ظناً منا ان هذه المكانة المرموقة باعثها قول الشعر، واصطناع الادب، واملا في ان يتمتع احدنا بمثل مكانة الشاعر المقدس المحبوب ، ولذلك فان مسلك « الشبيبي » ـ وليس شعره وحده ـ اوجد بعثاً ادبياً وشعرياً من بعضه هذه المدرسة الشعرية العالية التي عرفت بها « النجف » وشطر من مدن دجلة والفرات .

لقد قامت مكانة الرجل الادبية على ما ينظم من شعر ، وينشر من بحوث . ورست مكانته الاجتماعية على ما يلتزم من مثل، وما يتميز به من سلوك : حتى استقام له ان يمثل الفرات الاوسط في الاحداث الجسام والامور العظام ، وادركت بغداد والشام والحجاز وكانت يومئذ مراكز العمل العربي ـ ان اديباً في العراق ـ وفي الفرات الاوسط بخاصة ـ يؤهد الى العمل العربي بكفاية ، والى العمل الوطني بجدارة ، وانه بما له من شهرة ادبية في امته ، ومكانة اجتماعية في قومه سيعين على نجاح العمل العربي المشترك بين هذه الاقطار .

ولقد كشف الرجل ـ في كل ما انتدب له ، وفوض اليه ، او شارك فيه ـ عن اصالة في الرأي ، وسلامة في القصد ، ونزاهة في اليد واللسان والجارحة ، وبقي طيلة حياته وهو في مقدمة كل دعوة إصلاحية ، وعمل وطني ، يشارك السلطة او يعتزلها ، ويمارس المسؤلية او يتخلى عنها ، ولم تستطع صوارف العمل ، واحداث السياسة وتقلباتها ، وتطورات الاوضاع وتبدلاتها، ان تحجبه عن الظهور شاعراً وباحثاً يقتعد من المجامع اللغوية كرسي العضو والرئيس ، ومن المنازل السياسية مكان الوزير فالنائب فالعين ، فالرئيس او مكان المعارض الذي يحسب لعطلته وعزلته حساب من السلطة والمعارضة .

الميزات الفكرية والفنية

ولقد حدثت نفسي ان اتقدم لكم ببحث ناقد لآثاره ولكني قدرت ان ذلك لا تتسع له هذه الكلمة، او أن اتقدم بتصوير واف عن حياته ولكني وجدت فيما كتبه استاذنا «احمد حسن الزيات» عن حياة الشبيبي غنى عن أي صورة ، ولقد عشت في العراق اكثر عمري ، وصحبت الشبيبي غالب ايامي ، فما وجدتني انعم فيها ، او اقدر على دقة التصوير مما كتبه استاذنا « الزيات » عن النجف بخاصة والعراق عامة ، والشيخ الشبيبي بوجه أخص . وكانت اقامته في العراق وصحبته للشبيبي لم تزد على شهور .

شيء واحد آثرت أن اتحدث عنه هو الميزات الفكرية والفنية التي استأثر بها شعر الشبيبي من بين الشعراء الذين عاصروه وعاشوا جيله في العراق .

وفي سبيل ذلك لابد من تحديد الفترة التي اعنيها .

الفترة تبدأ من مطلع هذا القرن وقبيل اعلان الدستور العثماني حتى الثلاثين منه . والشعراء العراقيون الذين برزوا فيها كثيرون ، في طليعتهم ثلاثة : شاعر العراق الكبير معروف الرصافي ، والشاعر المتفلسف جميل صدقي الزهاوي وشيخنا العلامة رضا الشبيبي ونحن بقصد الحديث عنه .

المجتمع العراقي

كان المجتمع العراقي خلال هذه الفترة وبخاصة في طلائعها يتعرض لهزات اجتماعيـــة وسياسية تكاد تأتي على قواعده بالانقضاض ، وعلى روابطه التقليدية بالقطيعة .

مدنية غربية بفلسفتها وحضارتها، وجيوشها ،وآلاتها البكر تغزو مجتمعاً قديماً تقليدياً خبت فلسفته وانطمست معالم حضارته ، وركن الى الكسل والخمول ، وانتفاضات تحررية قومية تدعو الى الاستقلال القومي العربي عن الكيان السياسي العثماني الذي كان يمثل ـ على أي حال ـ وحدة المسلمين وبدأت هـــذه الهزات تنعكس آثارها على الشعب العراقي انعكاساً قوياً .

الحكم العثماني المسلم العاجز كيف يصلحونه او كيف يتخلصون منه ؟ الجمود العقلي والرجعية الدينية كيف يصلحونها او كيف يتخلصون منها ؟ الروح العربي المتوثب كيف يحققون ســـيادته ، ويضمنون حريته ؟ بهدم الدولة العثمانية ؟ او باستصلاح شؤنها والتعاون معها ؟

في الجانب الديني ادى ذلك ـ فيما ادى ـ الى الخلط بين الدين رسالة تقدمية انسانية وبعض رجال الدين اناساً متخلفين جامدين ، ووصل بين الدين ورجاله فشاعت على ألسنة الشعراء ـ وكانوا يومئذ ألسنة المجتمع ـ دعوة للانتفاض على الدين ، والانتقاص منه ، والزراية باصوله ، وبلغت الجرأة ببعض الشعراء والكتاب ان جاهر بالالحاد ودعا اليه ، واختلط الامر على بعض فكانوا ملحدين يوماً ومؤمنين في آخر .

ولكن الشيخ الشبيبي برغم ما شهد من ارتكاس في تقاليد بيئته ، ولمس من تزمت

وجمود في دعاة دينه ظل يشهد الخيط الفاصل بين رسالة الدين ، ومسلك رجاله ، وتعاليم الدين الاصيلة ،وما داخلها من أوشاب وأوضار ، ولم يقع فيما وقع فيه غيره من حمل صنيع هؤلاء على الدين ، والقاء جريرتهم عليـــه ، فبقي متمسكا بالدين داعياً اليه ، ناعياً على هؤلاء وحدهم ما ادخلوه عليه من اوشاب واوضار .

يقول في قصيدته التي مطلعها :

ماذا بنا وبذي الديار يراد　　فقدت دمشق وقبلها بغـــداد

* * *

جارت علينا عصبة روحية　　شقيت بها الارواح والاجساد
راجت نقائصها ولـكن آذنت　　برواجها ان الـكمال كساد
وعظت شيوخ لو اصابت لارعوت　　ولنال منها الوعظ والارشاد
حسب البغاة الظالمين تربص　　بالمســـلمين وحيلة وكياد
ان الزعامة سلمت لزعانف　　في الشرق قادوا اهله فانقادوا

ويقول في اخرى :

عددت داعية الاصلاح في وطني　　فما عـدت رتبة الآحاد اقلامي
العلم علم خرافات وشعوذة　　والدين دين منامات واحلام
موحدون ولـكن عزانكم　　تمتم وقـد نهضت عبّاد اصنام

* * *

وقوله في اخرى :

يا قوم ما الدين عادات معطلة　　وانما الدين تحليل وتحريم
لا تجعلوا آلة التفريق دينكم　　فالدين عن وصمة التفريق معصوم

* * *

وقوله :

لقب الناس من تولّوه شيخاً　　وهو في جلّ ما يراه صبي

وقوله في وصف بعض رجال الدين من قصيدة اولها :

املتمس الحقيقة يدعيها ... زلات رويّة وضلات عقلا
وما طاو يراع الوحش منه ... عملّس يسحب الذيل الرِّفلا
يحدد منه آزمة ويلوى ... ذراعاً لا تمل البطش فتلى
تعرّض للقطيع وقد ترامى ... على زرقاء تعطي الري نهلى
فروع سربها نهباً مباحا ... وفرّق منه بعد الجمع شملا
وألقى في براثنه أغنا ... كسا أبشاره من دما مطلّا
يعجّ فيستفز فؤاد أمّ ... رمت لعجيجه نظراتِ ثكلى
باغدر منك اذ تبتز مالا ... يحرمه النهى وتراه حلا
فمن أفتاك فيه واي شرع ... اباح لك الولاية ليس الا ؟

هذا موقفه من بعض رجال الدين ، اما موقفه من الدين نفسه والاسلام بخاصة فموقف المؤمن الموحد الذي لا يرى غنى للانسانية عنه ، ولاصلاح للنفوس بدونه في تأكيد بالغ لأصوله .

يقول من قصيدة في ذكرى الرسول :

الا ليت شعري ما ترى روح احمد ... اذا طالعتنا من علٍ أو أطلّت
وأكبر ظني لو أتانا «محمد» ... للاقى الذي لاقاه من اهل مكة
عدلنا عن النور الذي جاءنا به ... كما عدلت عنه قريش فضلت
إذن لقضى لامنهج الناس منهجي ... ولا ملّة القوم الاواخر مآتي
دعوت الى التوحيد يجمع شملكم ... ولم ادع للشمل البديد المشتّت
وجئت رسولا للحياة ولا ارى ... بكم غير حيّ في مدارج ميّت

الى ان يقول على لسان الرسول الكريم :

تلفّت يا روحي وانت غريبة ... عن الحيّ فاجتازي ولا تتلفّتي

وقوله من قصيدة اتفقت له خلال عزلة روحية مطلعها :

غريب بهذي الدار طال اغترابه فلا يزدهيه اهله وصحابه
غداً يقف الجبار موقف سائل فياليت شعري ما يكون جوابه
وأسعد خلق الله من جاء في غد قليلا تقصّيه يسيراً حسابه
اذا الكتب من هنا وهنا تطايرت أيصبح معطى باليمين كتابه ؟

وقوله من قصيدة اثر انفراج ازمة نفسية :

كان انحداري بالافكار يكربني فخان في سلم الافكار اصعادي
انجدت من بعد اغوار زلات بها فانجاب عن ثقتي بالله انجادي
وقد حدتني أهواء مضللة عدلت عنها وظل الركب والحادي
يا للبرية من زيغ يراد بها ومن ضلال ومن كفر والحاد
الكائنات ـ تعالى جدّ محدثها ـ يقال موجودة من غير ايجاد

وفيما يتصل بعلاقة العرب والاتراك حينذاك ومطالبة العرب باللامركزية او الاستقلال التام عنهم فقد اختلف فيها شعراء الفترة اختلافاً بيناً ، تناسى بعضهم فيه قوميته العربية ، فنعى على العرب مطالبتهم بحقوقهم ، وتجاهل بعض روابطه الدينية فدعا الى الانتقاض على الاتراك والالتقاء مع الغرب في حربهم ، ولم يعد يسهل على كثير من شعراء الفترة التمييز بين حقه عربياً ،وبين واجبه مسلماً ، ولكن الشيخ الشبيبي وجد الخيط المؤشر على حقه عربيا وعلى واجبه مسلما ، فلم ينس ان يطالب بحق امته ، ولم يتخلف عن واجب دينه .

تذكر جهاد الترك في سبيل الاسلام ، ودفاعهم عن الدين ، وخرج مجاهداً مع المجاهدين في حربهم مع الانكليز في العراق، واستحثهم على الجهاد في حرب «البلقان» و«برقة» وترحم على شهدائهم الذين استشهدوا في ساحات القتال ، وانكر على العرب تعاونهم مع الانكليز في احتلال دمشق ، وغاية ما كان يوجهه للاتراك التذكير بحقوق العرب ، والتأنيب على ما فرطوا فيه ،وحملهم على معاودة الرأي في تحقيق استقلال لاخوانهم العرب، ويوم تركوا

البلاد العربية ـ والعراق بخاصة ـ ودّعهم وداع لا قال ولا شامت .

يقول على اثر معركة جرت بين الاتراك «والانكليز» في «المدائن» قرب بغداد وقد انتصر فيها الاتراك ـ والجيش العثماني بقيادة خليل باشا ـ في قصيدة مطلعها :

أعالم بالذي وافت مـــدائنه كسرى وايوانه المعقود والسور

منها في وصف المعركة :

تجاه ايوان كسرى مأزق ضنك اودى الرجال به والخيل والعير

كادت تميّز ذبّاً عن حقائقها فيه النقوش وتستضرى التصاوير

شأو تعاطت سباقاً دون غايته جرد البصائر والجرد المحاضير

قتلى بدجلة منها دجلة امتلأت والنهروانان والارباض والدور

من لم يلذ يوم ساباط وليلته صوب النجاة فمقتول ومأسور

يوم أغرّ من الايام منبلج وموقف في سبيل الله مأثور

يا من احبوا على الدنيا شهادتهم تزينت لكم الولدان والحور

ويقول حين احتلال الانكليز لدمشق باسم الجيوش العربية من قصيدة مطلعها :

ماذا بنا وبذي الديار يراد فقدت دمشق وقبلها بغـــداد

* * *

هل في غياض «الدردنيل» مجاوب إن قلت لم لا تزأر الآساد ؟

خرس المقاول ناطقون دهاهم ريب الزمان وغيّب أشهاد

رفع الهلال عن السماء وقد خبا أو كاد ذاك الكوكب الوقاد

ويخاطب الاتراك على اثر خروجهم من العراق من قصيدة مطلعها :

املكوا الصبر ان يطير شعاعا غمرات وينجلين سراعا

الوداع الوداع يا آل عثمان فقولوا لنا الوداع الوداعا

واقسى ما عاتبهم به ما ورد في هذه القصيدة وهو عتب على قساوته يجيش بعاطفة من الحب والاخوة الاسلامية :

يا من يعز علينا أن نوءّبهم ... في حيث لا ينفع التأنيب والعذل
جفوتمونا وقلتم نحن ساستكم ... مني مطيتها الاخفاق والفشل
أما صفحنا عن الماضي لاعينكم ... اما اديلت لكم ايامنا الاول؟
أما استجيشت كما شئتم كتائبنا ... حتى تفايض منها السهل والجبل؟
اما مشت تذرع الدنيا، اما انقطعت ... بها المتايه، والغيطان والسبل؟
أما اطاعوا اما برّوا اما عطفوا ... اما احتفوا بمواليهم اما احتفلوا؟
قوم من العرب وخز النحل حظهم ... وحظ قوم سوانا الأرى والعسل
تأبى الحوادث الا ان تملّكم ... ولا ودين التاخي ما بنا ملل

ولكنه وهو يجاهد مع الاتراك ويبارك مواقفهم وبطولاتهم لم ينس ابداً قومه ولا حقوقهم، ولا ما انزل العثمانيون فيهم من الحيف. وشاهد ذلك ما تقدم من عتب على العثمانيين ومن تقريع لهم ثم استنهاضه للعرب والمطالبة بوحدتها:

ناديت قومي وحق القوم مغتصب ... وصحت شعبي وحق الشعب مهضوم
ما لي ارى الارض جنات وارضكم ... يا امة الخير مومات وديموم
عجزتم فحياة المرء عندكم ... الى السماوات تفويض وتسليم

* * *

او قوله:

ببغداد اشتاق الشآم وها انا ... الى الكرخ من بغداد جمّ التشوق
هما وطن فرد وقد فرقوهما ... رمى الله بالتشتيت شمل المفرق
وما الارض لولا اربع عربية ... سوى عطن بالعبقرية ضيّق

* * *

وقوله:

اني ذاك العراقي الذي ... ذكر الشام وناجى اليمنا

انني اعتد نجـــداً روضتي وأرى جنة عدن عدنا

* * *

وقوله :

بردى واودية الفرات ودجلة والنيل غصّ بمائك الوراد
حال العلوج من الأحامر بيننا وتعـــذر الاصدار والايراد

* * *

وقوله :

ما زالت العرب قبل اليوم ناهضة فلا تقولوا اذن فلتنهض العرب
لا فخر للناس ما لم يهتدوا بهم اينزل الوحي ام تأتيهم الكتب
تطول مرضاتهم لله فاطرهم حتى اذا أمكنتهم غضبة غضبوا
من لم تفتهم على حال نوافلهم ايتركون معاذ الله ما يجب

* * *

وقوله :

كوّنوا الوحـــدة لا تفسخها نزغات الرأي والمعتقـــد
انا بايعت على ألاّ أرى فرقة هاكم على هـــذا يدي

تلكم ظاهرتان ظاهرة الفصل بين الدين ورجاله ، وظاهرة التميز بين حقه عربياً وواجبه مسلماً ، فلما اهتدى اليها احد من شعراء الفترة المبرزين ، وهي ميزة لا بد ان تسجل له بكل تقدير .

وشيء آخر تفردت به آثار الرجل شاعرة وناثرة هو الترفع عما تتعرض له الاقلام والالسنة من هناة بحكم الضعف الانساني، والهوى الشخصي ، والتأثر بحالتي السخط والرضا ، والاستجابة لنوازع النفس ، وضرورات الحياة على امتدادها من الصبا الى الكهولة الى الشيخوخة .

فالابواب التي طرقها في شعره هي الحماسة ، الوطنيات ، الحكميات ، الاجتماعيات والاخلاقيات والالهيات ، والوجدانيات ، والوصفيات ، والرثاء ، والمتفرقات وليس فيها جميعاً ما يمكن ان يؤاخذ عليه اغلاءاً او تزيداً او نقصاً او تمحلا او افتئاتاً .

اما غزله ـ وهو ما يمكن ان يستباح له فيه ما لا يستباح في غيره ـ ، فقد كان غزلا اشبه ما يكون بأوراد المصلين ، وسبحات المتبتلين ، ولا اعرف في كل وجدانيات العربية شعراً أنزه ، او أعف من شعره واخلى من الترخص والابتذال :

شغل السمير جوارحي وشغلتم ... روحي فكنتم دونه سمارها
ما شأن جثماني وما اوطاره ... الروح بالغة بكم اوطارها
نلتم حقيقتها التي خلصت لكم ... طوعا ونال سواكم آثارها
ما آثرتكم بالولوع وانما ... جهل الورى وعرفتم مقدارها

* * *

قلبي يريد بلا غبّ زيارتكم ... والعقل يأباه الا بعد إغباب
ما زال في الصلوات الخمس ذكركم ... نجوى مصلاي او تسبيح محرابي
لم ادر ما اتهجّى غير انكم ... في اللحن لحني وفي الاعراب اعرابي
وطالما سرت في وجه فلم ارني ... الا وقد علقت يمناي بالباب
ما انصف الحبّ ـ لا تحصى شواهده ـ ... من شكّ أنكم في الله احبابي

* * *

أحبتنا إنّ المحبة فيكم ... على كثرة العشاق أكثرها دعوى
ولو ادركوا الحب ابتلوا غير أنهم ... احبوا كما شاءوا السلامة لا البلوى
واشقى الهوى ما كان غاية اهله ... وعقباهم منه الخلاعة واللهوا
اذا نحن وازنّا الهوى ونفوسنا ... ومقصدها منه عرفنا الذي تهوى

* * *

ما كفاكم من امتحان المحبّ ... ان تجافى عن المضاجع جنبى
اعلى العين هذه فرض عين ... حين يدعو داعي البكا أن تلبّى
أنا ربيت ناشئاً من هواكم ... لا تضيعوا بالله أجر المربّى
سوف اقضي من الصبابة حقي ... حين اقضي من الصبابة نحبى
آيسونا من اللقاء وقالوا ... حسبك الطيف طارقاً ،قلت حسبى

طيبات الآثار

ولقد ابدو وكأنني قصرت حديثي عنه على حديث عن شعره ، وهذا حق ، فانه الأثر الفني الخالد له من بين طيبات الآثار ، والمستأثر بجهده ايام شبابه وفتائه .

ان للعلامة الشبيبي كتباً وبحوثاً ومقالات ادبية في موضوعات مختلفة يتصل اكثرها بالتاريخ وباللغة ، في مقدمتها كتابه عن مؤرخ العراق ابن الفوطي وفيه دراسة تشمل العصر العباسي كله ، وتعالج قضايا كثيرة تستحق كل قضيـة منها ان تنفرد بكتاب ، وفي هذا الكتاب كشف الرجل عن منهج له في دراسة التاريخ وفي نقد النصوص وتحقيق الاصول شبيهة بمناهج المبدعين من اصحاب الاختصاص ، ويتلوها آثاره المتصلة بالرحلات وباللهجات العربية ، فان فيها تحقيقاً لكثير من المواطن والمنازل والقبائل التي مرّ ذكرها خلال رحلاته ، وفي دراسة اللهجات تجد مقارنات وبحثاً عن الاصول اللغوية يكشفان عن طول باع .

وبعد فقد مرّ على وفاة الشيخ الشبيبي عامان ، ما يزال يحياها في المجامع وفي المجتمعات وستظل ذكراه عاطرة ما تنسم الناس روح الادب والشعر .

رحم الله ـ ابا سعد ـ ووفاه جميل ما اسدى للغته ودينه وللمثل الفاضلة ، واحيا ذكراه وآثاره . انا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء احصيناه في امام مبين .
« صدق الله العظيم »

عبد الرزاق محيي الدين

بمناسبة استقبال الدكتور عبدالرزاق محيي الدين عضواً في مجمع اللغة العربية

اعمدة الأدب العراقيون في مجمع اللغة العربية بالقاهرة

للدكتور إبراهيم بيومي مدكور
الامين العام لمجمع اللغة العربية بالقاهرة

القى الاديب الكبير الدكتور ابراهيم بيومي مدكور الامين العام لمجمع اللغة العربية في القاهرة الخطاب القيم التالي خلال استقبال المجمع للعضو العراقي الدكتور عبدالرزاق محيي الدين رئيس المجمع العلمي العراقي وتحدث فيه عن دور العراق في خدمة لغة القرآن الكريم منذ انشاء المجمع لليوم ..

لقد كان حظ مجمع اللغة العربية من شيوخ العراق وعلمائه عظيما ، تواردوا عليه فاضلا بعد فاضل واماماً بعد امام ، ويعدون بحق في مقدمة مؤسسيه ومؤيديه ، أشترك في رعيله الاول الأب أنستاس الكرملي وهو من تعرفون وثوقا في الرواية ، وتمكنا من الدراية ، حذق عدة لغات قديمة بين شرقية وغربية ، ووقف حياته على خدمة اللغة العربية ، ودوى صوته في مجمعكم بضع سنين، وردد كثيراً من آرائه بين العرب والمستعربين . وهو دون نزاع من دعائم النهضة اللغوية المعاصرة في العراق .

وخلف من بعده امام جليل وشيخ عظيم ، وهو المرحوم محمد رضا الشبيبي الذي قضى معنا سبعة عشر عاما مرموق المكانة ظاهر الجلالة ، يعمل في دأب ، ويؤمن بما للعربية من شأن في جمع الكلمة وضم الصفوف . ارتبط بالمجمع باوثق رباط ، فلم يتخلف قط عن مؤتمر من مؤتمراته ، ورأس عدداً غير قليل من جلساته واسهم مخلصاً في بحوثه ودراساته . احب المجمع واحبه المجمعيون جميعاً على السواء .

وفي عام ١٩٦١ حظي مجمع اللغة بشيخ ثالث من كبار شيوخ العراق ، هو الزميل الكريم الاستاذ محمد بهجة الأثري، الشاعر والناشر ، الكاتب والخطيب ،اللغوي والاديب ، والمؤرخ والفقيه . فأمدنا بفيض من دقيق علمه وعميق بحثه ، ولا يزال يمدنا في كرم وسخاء . نستشيره فيشير ، ونسأله فيجيب ، ونكتب اليه فيرد بعد درس واحاطة .واشهد انه يعاوننا دون انقطاع في المؤتمر وقبله وبعده . يؤمن بان رسالة المجمع رسالته ، ورسالة كل عربي يعتز بعروبته .

واليوم ينضم الى زمرة المجمعيين علم آخر من اعلام العراق ، رابع اربعة كلهم علم وفضل وسمو ونبل ، وهو الدكتور عبدالرزاق محيي الدين رئيس المجمع العلمي العراقي . عرفناه قبل ان ينضم الى هذه الزمرة فعرفنا فيه الروح الهادئة ، والنفس الزكية ، والنظرة الصائبة، واتصلنا به عن قرب في مؤتمر بغداد ، فوجدناه يذوب رقة ، ويفنى في خدمة ضيوفه وزملائه . حرص دائما على ان يكون الى جانبهم في حلهم وترحالهم ، ولم يفته ان يشترك في درسهم وبحثهم ، برغم ما كانت تلقيه عليه الوزارة من اعباء وما كان يضطلع به من مسؤوليات جسام .

وكم يسعدني ان انوب عن المجمع في استقباله ، واخوف ما اخاف الا يتسع الوقت لكي اوفيه حقه ، وما اكثر جوانبه واخصب نواحيه . واني لاستقبل في شخصه العربي الصادق في عروبته ، والوطني الغيور على وطنه والشاعر والكاتب ، والعالم والباحث والسياسي ورجل الدولة .

وقد وجدت مكان القول ذا سعة فان وجدت لسانا ناطقا فقل

وحسبي ان ارسم صوراً آمل ان تعبر عن بعض جوانبه ..

عبدالرزاق محيي الدين عربي صميم ، تملأ العروبة قلبه ، وتجري في دمه ، استمدها من اصول عالية . وغذاها بغذاء سليم . فهو يصعد الى اسرة عربية من اسر (جبل عامل) بلبنان ، رحلت الى العراق في منتصف القرن السابع للهجرة ، واستقر اغلبها في النجف

الاشرف ، وامتد فريق منها الى لوائي الحلة والديوانية ولا تزال لها بقايا في بعض مدن لبنان كصور وبيروت وتنسب الى جدها الاعلى محي الدين ، الذي كان يلقب بالعاملي اشارة الى وطنه الاصلي ، وبالحارثي الهمداني تنويهاً بانه من اولاد الحارث الهمداني احد قواد الامام علي كرم الله وجهه .

وفي بيت من بيوت العلم والدين ، ولد عبدالرزاق في نهاية العقد الاول من هذا القرن ونشأه ابوه نشأة عربية اسلامية فحفظ القرآن ، وتلقى في جوامع النجف علوم العربية والفقه واصوله ، والكلام والمنطق . وما اشبه جوامع النجف بالجامع الازهر ، تسير على الطريقة التقليدية وتخرج فقهاء في الدين وعلماء في الفقه .

وشاءت الاقدار ان يستكمل درسه في مصر ، فأوفد في بعثة الى مدرسة دار العلوم ـ كلية دار العلوم الان ـ وهو في الثالثة والعشرين . وتفتحت امامه أبواب فسيحة للدرس والبحث في علوم العربية وآدابها وامتد نشاطه الى نواح اجتماعية هامة في مقدمتها « انشاء ناد للطلبة العرب » وما يزال قائماً حتى اليوم ، وفي هذا ما يعبر عن ميوله المبكرة .

وما ان اتم مهمته حتى عاد الى العراق عام ١٩٣٧ ليؤدي رسالته ، فقام بالتدريس بدار المعلمين العالية ببغداد ، وقضى فيها نحو سبع سنين ويظهر انه لم يقتنع بما انتهى اليه من درس في العلوم العربية ، وشاء ان يفرغ لها مرة اخرى ، وان يتعمق فيها ما وسعه . فالتحق بالدراسات العالية بكلية الآداب بجامعة القاهرة وحصل على درجتي الماجستير والدكتوراه .

ومن هذا الزاد الوفير اخذ ينفق عن سعة ، يغرس في تلاميذه روح الوطنية الصادقة والقومية السليمة ، وينشر دروس العربية الحقة . اختير استاذاً للبلاغة بكلية التربية ، ثم عميداً لها ، واسهم في بناء جامعة بغداد ، وكان نائباً لمديرها فترة من الزمن . وحظي بعضوية المجمع العلمي العراقي ، وانتخب رئيساً له منذ عام او يزيد ، خلفاً للمرحوم محمد رضا الشبيبي وهو يرى ان العروبة سمحة كريمة ، تقوم على الاخاء والمساواة ، وتنفر من دعاوى العنصرية

وكم من دول عربية التأم فيها شمل اجناس متعددة . ويحرص العرب دائماً على ان يعيشوا في وئام مع الترك ، ولا يترددون في ان يعقدوا صلات شرقا وغربا ، ما دام ذلك لا يعدو على كيانهم ، ولا يسيء الى مقدساتهم . وعنده ان الاخاء العربي الكردي في العراق راسخ الاصول، متين الدعائم، ومسائله ميسرة واسبابه متوافرة.لا يعكر صفوه إلا الدخلاء، وذوو الاهواء الذين لا يعيشون الا في جو الفرقة والخلاف . يستمسكون بشعارات زائفة ويتعصبون لقوميّات مصطنعة .

للقومية تجار لا يقلوّن خطراً عن تجار الحرب والسياسة ، يثيرون الفتن ، ويبثون السموم ولا يرعون في الوطن إلّا ولا ذمّة . واتقاء لخطرهم أثار عبدالرزاق محيي الدين في الصحافة العراقية عام ١٩٦٠ حواراً جريئاً وصريحاً حول القومية الكردية . وقد بدا منه ان « التراحم بين العرب والاكراد امر متوارث من احقاب التاريخ » ، ولا يفسده الا تيارات اجنبية ودعايات هدامة ، وعلى الاستعمار والماركسية في ذلك وزر كبير وواجب العرب والاكراد ان يدرأوا هذه الفتنة وان يتلاقوا وجهاً لوجه ، ويتبادلوا الرأي في صراحة فيمهدوا السبيل لتراحم اكبر ، وتآزر اقوى . واستطاع زميلنا ان يجمع اطراف هذا الحديث في كتاب له عنوانه : « من اجل الانسان في العراق » ، وفي هذا الكتاب درس وعظة ، وما أجدره ان يقرأ ، وفتنة الاكراد لها اشباه ونظائر في اوطان عربية اخرى .

الدكتور عبدالرزاق يقظ يقف للدعايات الهدامة بالمرصاد ، لانه يخشى منها على الوطن والدين والقومية . لم يتردد في ان يكشف ستارها ، ويحارب انصارها ويلاحظ بحق انهم في الاغلب من الانتهازيين الذين يتمسحون بالاعتاب ، وينتقلون من حاكم الى حاكم . ناصروا العهود الماضية، وفي ما خجل سارعوا الى التعلق باهداب العهود الحاضرة . واتخذوا من بعض المباديء الهدامة شعاراً ظنوا انه يكفر عن ماضيهم ، ويعفى على سوءاتهم . وقد حمل الزميل عليهم حملة شعواء ، وناضلهم بلسانه وقلمه في جرأة وبسالة ولاقى في سبيل

ذلك ما لاقى من نفي واعتقال وقضى في السجن زمناً ، ولم يخرج منه الا في ثورة الرابع عشر من شهر رمضان التي طوحت بعبدالكريم قاسم وحكمه .

وفي المحنة التي مر بها العالم العربي في حزيران الماضي ، لم يقنع عبدالرزاق محيي الدين ، رب القلم ان يتابع الاحداث في مكتبه وداره فحسب ، بل ابى الا ان يشرف على ميادين المعركة بنفسه ، وتعرض مع نفر من زملائه لخطر كبير .

تلك هي عروبة زميلنا ، وهذه هي بعض صورها وآثارها .

والزميل الكريم شاعر بالسليقة ، قرض الشعر ولما يبلغ العشرين . ارسل منه بواكير في النجف ، ثم تلتها قصائد شتى في القاهرة وبغداد واستمر وحيه يمده الى عهد غير بعيد . واخشى ما أخشاه ان تعدو اعباء السياسة والشؤون العامة على شاعريته فنحرم من خياله البديع ونغمه الرقيق . واعلم انه جمع شعره في ديوان لم ينشر بعد ، ونأمل ان يخرج الى النور قريباً ، وان يوضع الى جانب نظرائه من انتاج شعراء الجيل ، وما وقفنا عليه منه يشهد بدقة ، المعنى وصفاء الاسلوب ، ورقة الخيال ، ونحرص على ان نقدم نماذج منه متدرجة مع الزمن .

اذا الشعر لم يحدث بشعبك ضجة ... فتلك قوافٍ قد نظمن واوزان

وان لم يكن حر العقيدة موقظاً ... فليس له في نهضة الشعب احسان

وفي عام ٤٦ قال في حفل لتكريم خليل مطران بالقاهرة :

شاعر القطرين بوركت صباً ... وشبابا ومشيبا واكتهالا

جئت والنهضة فينا طفلة ... بعد لم تبلغ فطاما او فصالا

وتباشير حياة حرّة ... شعّ في الوادي سناها وتلالا

ورفاق عدّ إخوان الصفا ... نفروا واستنفروا الناس عجالا

كنتَ في القادة منهم فكرة ... ومن الساقة إذ اعيوا كلالا

* * *

مصلح في غير دعوى مصلح ... ونبيّ لم يكلفنا امتثالا

تخـــذ الفن له آلهـــة وحواريّيه الفن انصاراً وآلا
سل بيوت الفن من عمرهـــا واشاع الخير فيها والجمـــالا

وفي عام ٥٧ قال في ذكرى اقبال :

ذكراك « اقبال » تحييها فتحيينا كآية الذكر تتـــلوها فتهدينا
أهاب بي منك روح فاستجاب له روح أبى القول في مجبولة طينا

* * *

إقبال دينك ما يقضي بشادرة لو ان شعبا وفى حقاً بما دينا
جاهدت في الله عن اهلي وعن وطني في حين سيموا به خسفاً وتوهينا
وحين زعزعت الشذاذ طـــارئة حصونهم واحالتها ميادينـــا

اما عبدالرزاق محيي الدين الباحث والمؤلف فانتاجه متنوع ، وضع كتبا مدرسية في تاريخ الادب لتلاميذه وابنائه وعنى بالتحقيق فحقق جزءاً من كتاب « المقابسات » واخر من كتاب « البصائر والذخائر » وثالثاً من كتاب « الوجيز في تفسير القرآن العزيز » . وقام بدراستين هامتين ، اولاهما « ابو حيان التوحيدي والثانية « ادب المرتضى » .

ويدرج في تحقيقه على نسق واضح ، ومنهج علمي سليم ، فيثبت اولا نسبة الكتاب الذي يحققه الى صاحبه ويجمع من اصوله كل ما وجد السبيل اليه ويصف المخطوطات وصفاً كاشفاً . ويقدم في الصلب النص الذي ارتضاه ويشير في الهامش الى الروايات والقراءات المغايرة ويتـــدارك ما فات الناشرين السابقين . ولا يفوته ان يوضح الكلمات الغامضة . ويعرف ببعض الشخصيات ، ويحقق بعض التواريخ .

وفي تحقيقه لكتاب « المقابسات » وكتاب « البصائر والذخائر » وفاء لابي حيان التوحيدي الذي اولع به وكشف عن كثير من جوانبه . وبرغم ان هذين الكتابين قد نشرا من قبل فانه اضاف اليهما جديداً وآمل ان يستكمل تحقيقهما على طريقته ومنهجه .

وفي تحقيقه لكتاب « الوجيز » استجابة لرغبة كريمة ابداها المرحوم والده فقد طلب اليه ان ينسخه وهو لا يزال في صباه الباكر ، وكان لابد له ان يفعل ، وتلك شيمة من

شيم العرب واخلاق الاسلام . ونحسّ ان محققنا متحرج نوعاً من اداء مهمته ، ولا ادل على ذلك من انه لجأ الى شيخ ثبت في سير الرجال ليترجم للمؤلف وما ذلك في اغلب الظن الا لان صاحب كتاب «الوجيز» هو علي بن الحسين بن محيي الدين العاملي الحارثي الهمداني وهو من اجداد زميلنا الاعلين .

وباع الدكتور عبدالرزاق في البحث والدرس طويل ، وجلده عظيم ، وصبره جميل . وكتاباه « ابو حيان التوحيدي » ، و « ادب المرتضى » آية في ذلك . وعندي ان كتابه الاول في قمة انتاجه وقف عليه عدة سنوات من سني الشباب والتفرغ ، وتهيأ له باكمل اسباب البحث والتمحيص . فجمع كل ما تيسر له من كتبه المطبوعة والمخطوطة واضاف اليها ما اقتبسه الاقدمون من كتبه التي ضاعت اصولها وقرأ ذلك كله في روية وتأن وفهم وتفهم ، مستعيناً بما توافر لديه من زاد ادبي ولغوي كبير . وتتبع ما كتب عن ابي حيان قديماً وحديثاً ، فاخذ منه ما اخذ ورفض ما رفض .

وابو حيان شخصية عريضة متعددة الجوانب ، ويمكن ان يعد من بين اصحاب دوائر المعارف ، عرض للنحو واللغة ، والشعر والادب ، والفقه والكلام ، والتاريخ والسياسة وقد قيل عنه انه فيلسوف الادباء واديب الفلاسفة . وكان صوفي السمت ، ولعل التصوف من اظهر ما عرف به . واولع بالنقد والحكم على الرجال ، وتعرض لكثير من معاصريه والسابقين عليه ، ومؤلفاته مصدر هام وصورة من اضح الصور عن الحركات الفكرية والادبية في القرن الرابع الهجري . ولم يسلم هو نفسه من النقد والتجريح ، فطعن في بعض رواياته ، وجرح قدر من اقواله . اختلف في نسبه : افارسي هو ام عربي ؟ وفي مذهبه : اشيعي هو ام سني ، وفي دينه : امؤمن هو ام زنديق .

وكان على الدكتور عبدالرزاق محيي الدين ان يعالج ذلك كله بروحه الهادئة وحكمه المتزن وهو في الواقع هادىء في بحثه هدوءه في سلوكه وتفكيره . يسلسل الوقائع والاحداث ويرتب المصادر ترتيبا ، ويتتبع مختلف الروايات ، ويناقشها ويمحصها الواحدة تلو الاخرى .

ويعلن انه ليس من المولعين بافتراض الفروض ، ويمقت التعميم والدعاوى العريضة ، ويؤثر ان يحصر بحثه في دائرة ضيقة ما امكن ، كي يصل الى نتائج مقنعة . واشهد اني لم ار المنهج التاريخي قد طبق باحكام في دراسة مثلما طبق في كتاب « ابو حيان التوحيدي »

وقد انتهى بصاحبه الى امور حاسمة فقرر ان ابا حيان عربي ، وان طفولته غير معروفة وفسر طابعه الموسوعي بحرفة الوراقة التي تمد لمحترفها في مساحة ثقافته ، وتحول دون العمق والتركيز والتخصص . ورد ما يعزى عليه من اختلاق او وضع الى فنه الادبي ومنحاه القصصي والروائي ، واثبت ان « ابا حيان » لم يكن شيعيا . ولا عظيم العناية بالفرق ، وان جرى على قلمه شيء من آراء المتكلمين والمعتزلة بوجه خاص . ورفض تلك التهمة التي رددها اكثر من واحد ، والتي تعد ابا حيان في مقدمة الزنادقة في الاسلام ، وابان في وضوح ان اسلوبه متفاوت حسب مراحل سنه ، وحاول حصر هذه المراحل وبيان خصائصها ومميزاتها .

ومع هذا الدرس العميق المستفيض يختم زميلنا الكريم مقدمة كتابه قائلا في تواضع العلماء ونزاهة المحققين : « ان عملي هذا لا يزيد على دليل يشترشد به دارسو ـ ابي حيان ـ والا فلا تزال نواح كثيرة من فنه تحتاج الى دراسة اعمق ، والى بحث اوفى ، والى كتابات دونها كفايتي وجهدي » .

لست ادري ان كان يحل لي ان اعرض هنا لعبدالرزاق محيي الدين السياسي ، وقد شغل فعلا بعض المناصب السياسية الكبرى ، فتولى الوزارة غير مرة واختير « وزيراً للوحدة » واميناً عاماً للقيادة السياسية الموحدة . واني لاعرف كثيراً من آرائه التي تتصل بالمشاكل العربية الكبرى ولكن لعل من الخير ان تعرض في مجال آخر .

ويسعد المجمع والمجمعيين ان يستقبلوا اليوم الدكتور عبدالرزاق محيي الدين الشاعر والاديب ، والعالم واللغوي ، وهم لا محالة واجدون في علمه وادبه عوناً كبيراً وذخيرة لاتنفد .

ابراهيم مدكور